

مجزرة أغردات

يوم الأحد الأسود

Agordat Massacre

Black Sunday

مجزرة أُرْدَات

(يوم الأحد الأسود)

التاسع من مارس عام 1975م

الموافق 26 صفر 1395هـ

يرويه شاهد عيان ممن عايشوا أحداثها لحظة بلحظة وقُدِّر له أن يكون أحد الناجين.
قصة واقعية موثقة الأحداث بأدق تفاصيلها تُروى على لسان شهود عيان.

بحث ميداني

فرج حامد فرج

منظر عام لمدينة أغردات - إرتريا

(صورة الغلاف)



الإهداء

- إلى أرواح شهداء مذبحة يوم الأحد الأسود (9 مارس 1975م).
- إلى الجرحى الذين كانوا يلحقون جراحاتهم وسط الغابات.
- إلى الذين افترشوا الأرض والتحفوا السماء في الأحرار طلباً للنجاة.
- إلى أسرى شهداء المذبحة الذين عَزَّ من يواسيهم في ذلك المساء.
- إلى الناجين من الحادثة الذين شَمَوْا رائحة الموت وكُتِبَتْ لهم أعماراً جديدة.

المؤلف

❖ المقدمة :

الغرض من هذا الكتاب الذي طال الأمد بتأليفه والذي كان جديراً بأن يصدر منذ زمنٍ طويل هو إبراز الحجم الحقيقي للكارثة التي تعرض لها سكّان مدينة أغردات يوم الأحد 9 مارس 1975م وتراكمات الأسباب التي أدّت إلى ارتكاب المذبحة، والرواسب والمرارات التي ظلّ يستشعرها الحكّام الإثيوبيون تجاه إقليم بركة جنباً إلى جنب مع تعاظم الثورة الإرترية في هذا الإقليم خلال العقود الأولى من مسيرتها. فقد أوجدت المذبحة قصة حزينة في كل منزل من المنازل بمدينة أغردات يرويها الأجداد للأحفاد إلى يومنا هذا ولسنين طُول قادمة.

ما كان لهذا الكتاب أن يجد طريقه إلى القُراء لولا التعاون الصادق الذي غمرني به أبناء مدينة أغردات في شتى مواقعهم بمختلف البلدان خاصةً ذوو الشهداء والناجين من الحادثة بوجه عام. فالبعض منهم كان يمدّني بالمعلومة التي لديه والبعض الآخر كان يدلّني على من تتوفر لديه معلومة موثّقة... فلهم من الشكر أجزله. الشكر أيضاً موصول لكل الأسر الكريمة التي لم تتردد في تزويدي بصورٍ فوتوغرافية للشهداء رغم الأسى والحزن العميق، مع سرد ووصف المشهد الذي سقط خلاله أحد الأقارب.

النطاق الزمني والمكاني للبحث

من حيث الحدود الزمني، يرتكز هذا البحث بشكل أساسي على الفترة التي شهدت تراكمات الأحداث الممتدة من سبتمبر 1961م إلى مارس 1975م والتي أفضت إلى وقوع الحادثة فضلاً عن معطياتها المباشرة عام 1975م. كما أن الحدود الجغرافي للبحث ينحصر في المديرية الغربية وبوجه خاص مدينة أغردات التي هي مسرح الحدث. وبما أن سلسلة الأحداث مترابطة ومتداخلة بما يتعدّر معه عزلها فإنه لا مناص من تناول بعض الوقائع في أقاليم ومناطق أخرى في أزمنة متفاوتة بغرض الاستدلال أو تقريب المضامين سيما إذا كان لها إنعكاسات مباشرة أو غير مباشرة أو ألقت بظلالها على جانب هام من جوانب موضوع البحث.



المسجد الكبير - أغردات - بركة



مستشفى أغردات - إرتريا



مستشفى أغردات - إرتريا



فندق سافويا ، أغردات - إرتريا

❖ مكوّنات المجزرة

لماذا وقعت المجزرة وكيف بررها الجنرال الإثيوبي؟

إنّ حادثة أغردات التي أُبِيد فيها المئات من المواطنين لا تختلف في جوهرها عما تعرض له السكّان في كل من :-

حرقيقو - إمبرمي - إرافلي - مسيام - أم حجر - عوناً - عد إبرهيم - عد نصور - مسيام - كركون - وكي دوبا - وكثيراً غيرها. إلا أنّ ما يميز هذه الحادثة عن غيرها هو أنّها اتسمت بشيء من الغدر من جانب السلطات الإثيوبية التي أخذت المواطن المسالم على حين غرة من أمره... فكانت ضربة تحت الحزام... كانت مسرحية بطلها الغدر.

شهد مساء يوم الأحد 9 مارس 1975م مجزرةً من أبشع المجازر وأكثرها إيلاًماً في أوساط المجتمع الإرتري المدني. (كان المؤلف أحد الناجين من هذه الحادثة).

تفاصيل الحادثة :

تعود تفاصيل الحادثة إلى أنه في حوالي الساعة العاشرة (10،00) من صبيحة يوم الأحد 1975/3/9م وبناءً على طلب مدير مديرية بركة آنذاك (الشيخ / محمد أكد هرودا، يرحمه الله)، تم عقد اجتماع رسمي وشعبي حضره الأعيان وكبار الموظفين في القطاعين العام والخاص. ولما كانت التعليمات السلطوية تستوجب الانصياع مهما كانت الظروف، تقاطر المواطنون من كل ناحية واحتشدوا في الساحة أمام مقر رئاسة المديرية الواقعة في التل الشرقي من المدينة والمطلّة على الجهة الغربية منها. حتى هذه اللحظة لا يعلم الحضور عن سبب حضورهم، بل أنّ الكثيرين منهم كانوا يتوقعون توزيع بعض السلع التموينية علماً بأنّه كانت هناك أزمة طاحنة في المواد التموينية مثل الدقيق والسكر والذرة كما أنّ المواصلات بين هذه المدينة وغيرها من المدن كانت مقطوعة ولا تتنقل السيارات والشاحنات إلا وهي مصحوبة بقوافل من المركبات والمدربات العسكرية التابعة للجيش الإثيوبي.

عندما اكتمل التجمّع، كشف مدير المديرية النقاب عن سبب الدعوة إلى الاجتماع قائلاً أن مسئّلاً عسكرياً رفيع المستوى سيزور هذه المدينة في طريق عودته من مدينة "بارنتو" إلى أسمرّة مما يستوجب على سكان المدينة الإعداد لهذا الحدث واستقباله بصورة لائقة. في الوقت ذاته قام مدير المديرية بتوجيه أعيان المدينة وحثهم على مطالبة المسئول العسكري المرتقب بضرورة توفير السلع التموينية لهذه المدينة التي تأنّ تحت وطأة الحصار لفترة طويلة من الزمن ولا يوجد فيها من الثمار سوى القليل من الموز والدوم والذرة.

مبنى الإدارة الإقليمية لمنطقة بركة ، أغردات - إرتريا



في هذه الساحة إنعقد الإجتماع صباح يوم الأحد 9 مارس 1975م
وفي نفس هذه الساحة وقع تفجير القنبلة يوم 12 يوليو 1962م



الطريق إلى مبنى الإدارة الذي إنعقد الاجتماع في ساحته صباح يوم الأحد 9-3-1975م - أغردات

قام الأفراد المشاركون في الاجتماع بتوزيع الأدوار فيما بينهم مكلفين كبار السن بتوجيه كلمة ترحيبية للمسئول العسكري المنتظر وتذليلها بالمطالب المعيشية للمدينة التي لم تكن أقل صعوبة من الطوق العسكري المفروض حول المدينة منذ أمد طويل. استمرت هذه المداولات حتى وقت آذان صلاة الظهر وعندها طلب أحد أعيان المدينة، الشيخ / شريف حامد إدريس شريف، من رئيس الجلسة السماح للحضور بتلبية الأذان وأداء الصلاة الأمر الذي لم يعترض عليه أحد.

ظهيرة يوم الأحد 9/3/1975م

في الوقت الذي كانت المروحية لا تزال تحلق في الأجواء كان القدر ينسج خيوط المجزرة. ففي هذا التوقيت بالذات وبمحض الصدفة قام أفراد جبهة التحرير الإرترية باغتيال أحد المُخبرين السريين المتعاونين مع السلطات الإثيوبية واسمه "تخلي سلمون" TEKLE SOLOMON . كانت السلطات الحكومية المحلية قد زرعت هذا المخبر السري وسط سكان المدينة لينقل إليها المعلومات ومتابعة الأنشطة التي تقوم بها خلايا الثورة المشكّلة من السكان المدنيين داخل المدينة فضلاً عن تقصي تحركات الثوار في محيط المدينة. كان هذا المخبر السري يؤدي المهام الاستخباراتية المناطة به بكفاءة عالية مستغلاً وضعه

الاجتماعي كأحد سگان المدينة ومستفيداً من علاقاته الشخصية وإجادته اللغتين المحليتين التغري والتغرنية علاوةً على اللغة العربية العامية كلغة تخاطب ومعرفته التامة بأحياء المدينة وضواحيها. كانت السلطات الإثيوبية تستفيد منه ليس فقط لأغراض جمع المعلومات ذات الصبغة العسكرية بل أنها كانت تتعرّف من خلاله على الرأي العام لسگان المدينة تجاه القضية الإرترية ومواقفهم الوطنية. وإذا ما أخذنا في الاعتبار الفوارق الاجتماعية واللغوية والعرقية القائمة بين القيادة الإثيوبية بالإقليم وسگان المدينة وعدم التجانس واختلاف المفاهيم والثقافات بين الحاكم والمحكوم نجد أن هذا المخبر السري قد تم انتقائه بعناية وأنه يمثل شخصاً نموذجياً لتلبية المتطلبات الاستخباراتية الإثيوبية في تلك المرحلة الدقيقة داخل تلك المدينة العصيّة التي أرقت مضاجع السلطة الحاكمة.

كان المدعو "تخلي سلمون" يقنفي آثار الخلايا السرية ويتابع أنشطتها الثورية ليرفع تقاريره السرية إلى السلطات الإثيوبية الحاكمة في الإقليم. واستناداً إلى تقاريره كانت السلطات الإثيوبية تتخذ إجراءاتها القمعية وتعتقل المواطنين من سگان المدينة وتزجّ بهم في غياهب السجون. من المستبعد أن يكون المدعو "تخلي سلمون" قد تلقى تدريباً خاصاً في التجسس أو التحق بدورات استخباراتية متقدمة في هذا المجال إلا أنه كان بارعاً في أداء تلك المهمة بدليل أنه ظل يمارسها لفترة طويلة نسبياً دون أن يثير حوله الشكوك وأن معظم سگان المدينة لم يعلموا عن حقيقة أمره إلا بعد مقتله على يد ثلّة من الثوار الإرتريون. كانت حياته اليومية تتسم بالبساطة فتجده يرتاد المقاهي وأماكن التجمعات ويختلط بالمسافرين في مواقف الحافلات ويمارح من حوله. إلا أنه يتجنّب عادةً مناقشة الأمور السياسية أو الثورية بل يكتفي بالإنصات والحيادية بعيداً عن الشبهات. لم يجاهر بمقابلة المسؤولين في الإدارة الإقليمية المدنية أو العسكرية بالمدينة إلى درجة أن الآلية المتبعة لنقل وتبادل المعلومات فيما بينهم كانت لغزاً محيراً.

بمقتل هذا المخبر السري، فقدت السلطات الإثيوبية العين التي كانت تحرسها والعقل الذي كان يضيء لها الطريق في أوساط مجتمع عجزت عن ترويضه وسگان أبوا إلا أن يحتفظوا بشعلة الثورة متّقدة مهما كلفهم الأمر. كان مقتل المخبر السري صدمة عنيفة لسلطات الأمن المحلية المتمثلة في الشرطة التي كان يتكوّن معظم أفرادها من سگان

الهضبة الإرترية والتي كانت تتخذ مقرها في موقع متاخم لشركة نقل الركاب "ستاي SATAI" من الناحية الشمالية وكذلك قيادة فرقة الجيش الإثيوبي النظامي، ذلك لأن الحصول على بديل له بذات المواصفات والكفاءة كان أمراً بالغ الصعوبة. كان المدعو/ تخلي سلمون ينقل الأخبار فأصبح هو الخبر .

بديهي جداً أن مقتل المدعو/ تخلي سلمون كان السبب المباشر والذريعة التي استند إليها الجيش الإثيوبي لإبادة سكان المدينة حيث وجدت الإدارة العسكرية بالمنطقة ضالتها ومبرراً للانتقام من سكان المدينة الذين طالما تربصت بهم. ورغم أن هذا المُخبر السري هو أحد سكان المدينة إلا أن بعض المصادر غير الموثقة تفيد بأنه من محافظة " تغراي " من حيث الأصل وأحد أفراد الجالية "التغراوية" الذين نزحوا من مناطقهم بحثاً عن فرص العمل في البساتين المحيطة بمدينة أغردات على امتداد ضفتي وادي بركة ثم طاب لهم المقام بها واستقروا فيها شأنهم شأن الكثير من الكيانات الأخرى التي نزحت من مناطقها بالمرتفعات الإرترية من أجل لقمة العيش وتحسين أوضاعها المعيشية ثم انصهرت في نسيج مجتمع بركة والقاش على هذا الغرار.

تمت عملية الاغتيال باستدراج ذلك المُخبر السري من وسط المدينة إلى ضفة نهر بركة الجنوبية في مشارف المدينة ومن ثم تصفيته بأحد أحيائها الشعبية الشمالية المعروفة بإسم (حلة دوم) وتحديداً في الشارع الرئيسي الممتد من الشرق إلى الغرب والذي يشقّ الحي إلى نصفين بمحاذاة المسلخ التابع للبلدية. وقد تولى عملية الاستدراج ورتّب فصولها نفر من فتيان المدينة المقربين منه والذين لا تتجاوز أعمارهم العشرون عاماً بعد أن نسّقوا مع الجبهة. لم يكن أولئك الشباب أقل ذكاءً منه، فقد تمكنوا من إقناعه باصطحابهم إلى حيث يوجد الفدائيون سيراً على الأقدام وسط الأحياء. وفي لمح البصر وجد نفسه وجهاً لوجه أمام أفراد كان أحرص ما يكون على تفاديهم والنأي بنفسه عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وهنا انقلب السحر على الساحر.



الضفة الجنوبية لنهر بركة، أغردات
خلف هذه الأشجار الموضحة بالصورة ، أٌغتيل المخبر السري بأحد الأحياء السكنية.

كان الطقس في تلك الظهيرة يميل إلى الحرارة، والحركة التجارية في المدينة لم تكن نشطة باعتبار أن يوم الأحد يصادف عطلة أسبوعية تُغلق فيها الدوائر الحكومية الرسمية وأغلب المحال التجارية. لعل الأماكن الوحيدة التي يمكن أن نجد فيها حركة نشطة في ذلك اليوم هي المقاهي حيث يجلس الناس في ظلال الأشجار في الهواء الطلق يرتشفون الشاي الأحمر ويتناقلون الأخبار علماً بأنه لم يشغل بال السكان آنذاك سوى أخبار الساحة والقضية الإريتيرية بوجه عام. في الأيام القليلة التي سبقت المذبحة لم تقع أية مواجهة مع

الثوار أو أية تفجيرات في محيط المدينة أو داخلها كما أنه لم تلوح في الأفق بوادر هجمات أو عمليات عسكرية وشيكة من جانب الثوار مما عزز شعور السكّان بالاطمئنان ليمارسوا شئون حياتهم اليومية المعتادة.



مقهى تحت ظلال الأشجار، أغردات - إرتريا



شارع في أغردات

... وهبطت الطائرة :

هبطت الطائرة المروحية المقلّة للمسئول العسكري الإثيوبي في ساحة المطار الإقليمي المتاخم لمحطة قطارات السكة الحديدية والقريبة من مقر قيادة الجيش الإثيوبي بمنطقة بركة والتي كانت تتخذ بيوت الشيخ / عمر حسنو سكناً ومكاتباً لها. فبعد أن حطّ رجاله وقبل اجتماعه بالجمهور المنتظر، توجّه المسؤول العسكري الزائر من مهبط الطائرة مباشرة إلى مكتب الحاكم العسكري للإقليم الواقع على بُعد 150 متر تقريباً وذلك بغرض التشاور واتخاذ القرار المناسب على ما يبدو. علّم المسؤول العسكري الزائر عمّا جرى للمخبر السري فاستشاط غضباً. في هذا الأثناء كان المدعويين لا يزالوا يتوافدون نحو المطار من كل اتجاه تنفيذاً لتعليمات مدير المديرية ولا يعلم الكثيرون منهم ما حدث للمُخبر السري المدعو " تخلي سلمون " TEKLE SOLOMON .

احتشد جمهور الاستقبال في المكان المخصص تحت سقيفة واسعة مفتوحة من الجوانب تقوم على ركائز خرسانية وسقفها مغطى بصفائح قديمة من الزنك. كانت هذه السقيفة تُستخدم في العقود الماضية إبان الاستعمار الإيطالي كصالة انتظار لركّاب القطارات المسافرين شرقاً نحو المرتفعات وكانت هذه المدينة تمثّل المحطة النهائية لخط السكك الحديدية غرباً والذي يبدأ من ميناء مصوّع شرقاً حيث توقّف الإيطاليون عن إكمال الخط باتجاه الحدود السودانية بسبب نشوب الحرب الكونية الثانية.

حضر المسئول العسكري الإثيوبي الجنرال/ ورقو General/Worku بمعية الحاكم العسكري للإقليم العقيد/ رجاसा جيما غاما Colonel/ RAGASA JIMMA GAMA مخترقاً الطوق الأمني المفروض حول ساحة المطار وما جاورها ثم أخذ موقعه في منصة الشرف المتواضعة. كان الجنرال/ ورقو أحد كبار المسؤولين العسكريين الذين كانوا يتمتعون بصلاحيات شبه مطلقة ويشار إليهم بالبنان. وقف بزهوٍ أمام الجمهور بقامته الطويلة وجسمه الممتلئ في بذلته العسكرية رمادية اللون وقبعته الخضراء وعلى كتفيه نياشين وأوسمة من مختلف الدرجات. مضت لحظات وهو يُقَلِّب النظر في وجوه الحاضرين بتوجّسٍ وارتياب. ظلّ واقفاً ولم يجلس طيلة الفترة الوجيزة المقررة للاستقبال وحوله المدعوين من أعيان وسكان ووجهاء المدينة وهم يتأهبون لإلقاء الكلمة الترحيبية التقليدية مضمّنة بالمطالب المعيشية التي إن لم تجد حلاً سريعاً قد تتفاقم وتتطور إلى حالة مجاعة بسبب الحصار. لم توجد أجندة محددة أو جدول أعمال لهذا اللقاء سوى الكلمة المجهولة التي سينطق بها المسئول العسكري الزائر والمطالب المعيشية التي أشرنا إليها.

❖ نفسية الزائر

بالرغم من أن قومية الأمهرا خاصةً والقوميات الإثيوبية بوجه عام معروفة بطبعها الهادئ وتصرفاتها الرصينة إلا أن تلك الصفات الحميدة كانت مُغَيَّبة عن الضيف العسكري الزائر، فكانت علامات الضيق وعدم الرضا واضحة على قسّمات وجهه كما أنه لم يستطع إخفاء مسحة الغضب. المعلوم أن المواطن الإثيوبي العادي وانطلاقاً من موروته الثقافي لا يدع الفرصة أن تمر دون أن يعبر عن شكره لأي بادرة إيجابية يتلقاها من أي طرفٍ كان. فقد يعبر عن امتنانه بانحناءة أقرب إلى الركوع أو أن يرفع قُبْعته من رأسه، وإذا قُدِّمَتْ إليه عطيةٌ يسيرة لا يتسلّمها بيدٍ واحدة بل بكلتا اليدين مهما كان حجم العطية صغيراً، وإذا خاطب صغيرهم من هو أكبر منه سناً خاطبه بصيغة الجمع وليس المفرد (كأن يقول له أنتم بدلاً من أنت).

لم يجد الجمهور المحتشد للاستقبال أي تفسير لتلك الحالة المزاجية غير الاعتيادية فساد الوجوم. لم يتوقع الجمهور أن يُعامله الضيف الزائر بهذا الصدود وعدم المبالاة بعد أن

حرص على حسن الاستقبال منذ الصباح الباكر. كان موقفاً مخيباً للآمال. يبدو أن هذا الضيق والغضب مرده ما حدث في منطقة "بارنتو" التي عاد منها للتو. فأنشاء زيارته لها في صباح ذات اليوم وقعت معركة بين القوات الإثيوبية والثوار الإريتريين تكبد فيها الجيش الإثيوبي خسائر كبيرة. خلال تلك الحقبة من الزمن انتهجت السلطات الإثيوبية سياسة التعقيم الإعلامي على العمليات العسكرية التي تحدث بين الثوار الإريتريون والجيش الإثيوبي سيما إذا كان الطرف المنهزم فيها هو الجيش الإثيوبي.

حان الوقت لافتتاح الجلسة إلا أن "الضيف" الزائر لم ينطق بأي عبارة من عبارات المجاملة المعتادة لمستقبله أو للضباط الملتفين حوله على شكل نصف دائرة. انعكس هذا الوجود على الجميع. ساد المكان جوّاً من التوتر والسكون دون أن تُعرف أسبابه. الكل يتوقع من الضيف الزائر أن يريح أعصاب مستقبله بكلمة طيبة أو بإيماءة تدل على سروره بحفاوة الاستقبال. لم ينتظر المسئول العسكري الزائر إلقاء الكلمات الترحيبية بل أخذ زمام المبادرة في الحديث مستعيناً بأحد المواطنين من سكان المدينة وهو السيد/ (غبرو كفلى GABRU KIFLE) ليرجم حديثه مع العلم بأن غالبية سكان المدينة لا يُجيدون لغة التغرية الإريتريّة ناهيك عن لغة الأمهرية الإثيوبية. جدير بالتنويه إلى أن السيد / غبرو كفلى كان المترجم المعتمد من قبل الإدارة المدنية للإقليم ويتولى مهام الترجمة الفورية للهجات واللغات المحلية بكفاءة عالية بجانب عمله السكرتاري في الإدارة الإقليمية ذاتها، كما أنه كان محل ثقة مدير المديرية ومستودع أسرارهِ.

استهل المسئول العسكري حديثه قائلاً:-

" ... تعلمون جميعاً أن أول رصاصة للمتمردين الارترين قد أُطلقت في الجزء الغربي من هذا الإقليم (يقصد معركة " أدال " عام 1961م)...وتعلمون جميعاً أن أول حادثة تفجير للمتمردين قد نُفذت في قلب هذه المدينة بالذات (يقصد تفجير أغردات في 12 يوليو 1962م)... وقبل سويغات قليلة من ظهيرة هذا اليوم قتل "أبناؤكم" أحد المواطنين المسالمين (يقصد المخبر السري/ تخلي سلمون)"... ثم استطرد قائلاً : "إن الحكومة الإثيوبية تُدرك أنه لولا تعاونكم المطلق لما استطاع المتمرّدون أن يصمدوا في وجه قواتنا المسلحة.

ولولا دعمكم لهم والتستّر عليهم لما استطاعوا أن يقتادوا مواطناً مسالماً من وسط المدينة فيغتاالوه في وضح النهار في أحد أحيائكم السكنية. لقد تحلّت السلطات الإثيوبية بالصبر تجاه مواقفكم الداعمة لأعداء الدولة، فأنتم أثيوبيون نهاراً ومتمردون ليلاً. وقد دأبنا على نصحكم بالعدول عن هذه المواقف العدائية إلا أنكم لم تُغيروا للنصائح وزناً. ومن الآن فصاعداً يجب أن تحددوا موقفكم بوضوح، فإما أن تكونوا مواطنين إثيوبيين صالحين وإما أن تنضموا إلى صفوف أبنائكم المتمردين. وأن من يعتقد بأن الإدارة العسكرية بالمنطقة الغربية عاجزة عن مواجهة هؤلاء المتمردين القتلّة والمتعاونين معهم فهو واهم. أقرءوا التاريخ لتعلموا كيف أن أثيوبيا واجهت بحد السيوف التقليدية قوات الإستعمار الإيطالي (يقصد معركة عدوا ADWA عام 1887م بقيادة الإمبراطور منليك). وليكن معلوماً لديكم أن السلطات الإثيوبية المختصة لن تتساهل بعد الآن مع أعداء الوطن أي كان... إلخ... والآن يمكنكم أن تتجهوا إلى منازلكم فقد أصدرتُ تعليماتي للعقيد "رجاسا جيما" COLONEL/ RAGASA JIMMA لاتخاذ الإجراءات اللازمة حيال حادثة الاغتيال التي وقعت ظهيرة هذا اليوم داخل مدينتكم وفي وضح النهار".

.... انتهى حديث المسئول العسكري الجنرال/ ورقو – General/ Worku

استرسل المسئول العسكري في حديثه بنبرة تصاعدية حادة لا تخلوا من الوعيد المبطن دون أن يغفل عن مقتضيات مركزه الوظيفي الذي يستوجب عليه الحد الأدنى من اللباقة في مخاطبة الجمهور المحتشد أمامه. كان يغلب على حديثه الأسلوب الانفعالي الذي عجز عن لجّمه. كان يستعرض وكأنه يخاطب فرقة من الثوّار المسلحين الأسرى وليس سگاناً مدنيين حرصوا على حسن استقباله. كان يتحدث والشرر يتطاير من عينيه وقد انتفخت أوداجه وازداد جبينه تقطيباً وفي يده عصاً قصيرة يلوّح بها بعصبية في الهواء باتجاهات مختلفة كلما زادت حِدّة انفعاله. كانت كلماته كسّهام موجّهة إلى صدور مستقبلية.

في معرض حديثه المرتجل تعمّد المسئول العسكري الإثيوبي استخدام لغة التأنيب والترهيب. فعندما أشار إلى الرصاصة الأولى التي أطلقت في الجزء الغربي من إقليم بركة

قصد -على ما يبدو- إحراج السّكان وإثارة شعورهم بالذنب واستنطاقهم بالاعتذار تترّفاً. إلا أن سكان الإقليم لا يجدون حرجاً في ذلك ، بل يرون تلك الرصاصات الأولى وكأنها تيجان فوق هاماتهم تعتزّ بها أجيالهم أبد الدهر، وأن تلك الأعيرة النارية الأولى التي أطلقها الرعيل الأول ضد الإثيوبيون هي التي سطّرت صفحة مضيئة في تاريخ إرتريا المعاصر التي رفض شعبها حياة المهانة فاختار طريق العيش الكريم بدروبه الوعرة. وحينما استخدم المسئول العسكري الزائر أثناء حديثه كلمة " أبناؤكم " عوضاً عن كلمة " الثوّار " فإنه قصد إبراز العلاقة الوثيقة القائمة بين مستقبله من سّكان المدينة وبين الثّوار ومن ثم إلصاق التهمة بالسّكان كونهم جزءاً مكملًا للثّوار الموجودون بالميدان. لكن كلمة " أبناؤكم " التي استخدمها جاءت في موضعها الصحيح من حيث أن الكثيرين من مستقبله تربطهم وشائج مختلفة بالثّوار.

العبارة المفخخة :

كانت العبارة الأخيرة هي أهم ما ورد في حديثه حينما قال أنه قد أصدر تعليماته لحاكم المنطقة العسكري بأن يتخذ " الإجراءات اللازمة " حيال حادثة الاغتيال. لعل القارئ الكريم يلاحظ أن كلمة " إجراءات " يمكن تطويعها لتعطي أكثر من معنى. فعندما شكّلت لاحقاً محكمة خاصة في أديس أبابا لبحث ملابسات المجزرة واستدّعي فيها المسئول العسكري الجنرال/ ورقو ليدلي بأقواله نفى بأن يكون قد أمر بالتقتيل العشوائي وإبادة السّكان. وقال أنه أمر فقط باتخاذ " الإجراءات " وأن الجيش قد تصرف من تلقاء نفسه. في الوقت ذاته أقرّ بعض صغار الضباط الإثيوبيين بأنهم قد نفّذوا ما أمروا به بحسب فهمهم لتلك العبارة سيما وأنهم لم يتلقوا تعليمات مغايرة من القيادة الإقليمية طيلة ساعات المذبحة في ذلك المساء.

سوء تقدير أم عدم تجربة ؟

هنا لابد من وقفة تأمل. هل أحسن سّكان المدينة قراءة الحدث الماثل أمامهم وربط خيوط معطيته ببعضها ؟ هل استوعب الجمهور المستقبل ما قاله المسئول الإثيوبي الزائر ودقق في كلماته التي كانت مزروعة معاني متباينة بل مضلّة ؟ لماذا لم يتخذ سكان المدينة

الحيطة والحذر بعد مقتل المخبر السري؟ لماذا لم يستتبوا من حديث المسئول العسكري الإثيوبي أن هناك سحابة سوداء في سماء المدينة وقد تمطر ناراً؟ ألم تكن لهجته الحادة ناقوس إنذار للتنبيه عن كارثة محتملة؟ لماذا تعامل سكان المدينة مع حادث الاغتيال ببراءة متناهية كبراءة الأطفال؟ هل كان ذلك نتيجة لقصور في قدراتهم التحليلية للحدث؟

يبدو أن هناك ثلاثة عوامل أدت إلى غفلة السكان واستبعادهم وقوع مذبة من هذا العيار الثقيل : -

ففي المقام الأول، يمكن وصف العبارة التي نطق بها المسئول العسكري الإثيوبي بأنها كانت عبارة مفخخة إذ أنها توحى في الظاهر الحرص على استتباب الأمن وسلامة السكان في حين أنها كانت في الباطن محشوة بالبارود فعجز السكان عن قراءة مراميها جيداً وفك الشفرة السرية التي لوح بها ضمناً. كانت كلماته كالعسل الممزوج بالسم.

ثانياً: أن هذه المدينة وعبر تاريخها الطويل منذ الحكم العثماني (الأتراك) مروراً بالاستعمار الإيطالي ثم البريطاني لم تمر بتجربة من هذا النوع رغم الغزوات والاضغتيالات والتفجيرات وبالتالي لم يكن في الحسبان وقوع هذا النمط الجديد من البطش.

ثالثاً: إن فصول الحدث أتت متلاحقة ولم يتوفر متسعاً من الوقت لإخلاء المدينة حيث أنه لم يفصل بين وقوع عملية الاغتيال وبداية المذبة سوى ثلاثة (3) ساعات تقريباً.

إضافةً إلى ذلك، فإن وجود مدير مديرية بركة شخصياً وسط جمهور الاستقبال كان مبعث اطمئنان لهم رغم أن المعلومات التي كانت لدى مدير المديرية عن احتمالية وقوع المذبة لم تختلف كثيراً عما كان لدى السكان الذين يتولى إدارتهم.

الكثيرون من الناجين من مجزرة أغردات يتساءلون اليوم: ما الذي منع الجنرال الإثيوبي من إصدار تعليماته بأن تبدأ المذبة من صالة الاجتماع نفسها والقضاء على مستقبله أولاً ثم التوجه إلى الأحياء الأخرى بصورة منهجية طالما أنه كان هناك قراراً مسبقاً بحرق وإبادة المدينة. ألم يكن الجمهور المحتشد أمامه صيداً سهلاً ويوفر عليه الوقت والجهد؟ لماذا فرط في تلك الفرصة أم أنه يفضل أن يسمع فقط عن القتل ولا يود أن يرى الدماء

تسيل أمام ناظريه؟ هل تأفف من مشاهدة الأجساد تتهاوى داخل صالة الاجتماع؟ هل ثمة رواسب من العاطفة الآدمية تحركت في وجدانه في لحظة صفاء عابرة فقرر استثناء مستقبله مكافأة لهم أم أنه كان على يقين بأنه محيط بهم لا محالة وسيدركهم أينما كانوا؟

كان سكان المدينة قد أعدوا قائمة بالمتطلبات المعيشية على أمل أن يسهم المسئول الزائر في توفيرها أو أن يرفع بشأنها توصيات إلى جهات الاختصاص. إلا أن الضيف لم يكثر بإعطاء الفرصة لمستقبله وكأن لسان حاله يقول: *أن ما ستشاهدونه في غضون الساعات القليلة القادمة أكبر من عبارات الترحيب وأهم من بروتوكول التشريفات*، ثم توجه من صالة الاجتماع إلى حيث الطائرة المروحية التي كانت رابضة في مكان قريب بالناحية الجنوبية من الصالة محاطاً بضباط من مختلف الرتب. صعد سلم الطائرة دون أن يلوح بيده لمودعيه متجهاً إلى العاصمة أسمره. لم يستغرق حفل الاستقبال أكثر من تسعين دقيقة تقريباً.

لم يغادر الجمهور المستقبل مكانه حتى تغادر المروحية سماء المدينة كدلالة لحسن وداع الضيف الزائر. بعد ذلك توجه الناس من حيث أتوا أفراداً وجماعات، إلا أن الغالبية اتجهوا نحو وسط المدينة (جامع الأرواح) لأن الوقت كان لا يزال مبكراً للعودة إلى المنازل إذ أن حظر التجول المفروض في المدينة كان يبدأ وقتئذٍ من بعد غروب الشمس ويستمر حتى شروقها.

الدقائق ما قبل تنفيذ العملية

مع مقتل المُخبر السري " تخلي سلمون " أصبح مسرح الحدث متهيئاً لتنفيذ عملية خاصة من نوع ما. وبحضور المسئول العسكري الذي تزامن وصوله مع وقوع حادثة الاغتيال داخل المدينة إكتملت حلقات العناصر المستوجبة للثأر من المدينة وسكانها فكشّر الجيش الإثيوبي عن أنيابه. علاوة على ذلك إن غياب أية مبادرة دولية موضوعية لحل القضية الإرترية برمتها سياسياً واستمرار حالة الطوارئ في البلاد قد شجّع الجيش الإثيوبي لأن يعتقد بأنه في مأمن من أية مسائلات إدارية أو ملاحقة قضائية بل وجد نفسه فوق القانون، فحانت ساعة الصفر. دقت طبول المذبحة في إيقاع متناغم مع دقات قلوب

السكان. ظهرت طلائع الجنود الإثيوبيون وأخذوا مواقعهم وانتشروا بشكل أفقي في أرجاء المدينة وأحيائها، فمنهم من كان يسير راجلاً بمحاذاة الجدران ومنهم من كان راكباً على ناقلات الجنود المسطحة والبعض الآخر على سيارات "جيب" صغيرة الحجم مكشوفة مصوّبين أسلحتهم بمختلف الاتجاهات... أحاطت القوات الإثيوبية بالمدينة كما يحيط السوار بالمعصم. كان الهدف واضحاً ومحدد : إبادة سكان المدينة .

خلال الدقائق التي سبقت بداية المذبحة، بدأ الناس في التساؤل عن التحركات المريبة للجيش داخل المدينة ... ومن كل الاتجاهات ... وبكثافة غير معهودة. لماذا يضع الجنود الإثيوبيون أصابعهم على الزناد ويتأهبون وكأنهم يتوقعون هجوماً مباغتاً من عدو هلامي غير محدد الهوية؟ ... عدواً لا يعرفون أوصافه أو موقعه ولا يوجد إلا في أذهانهم... لماذا يتصرف الجنود الإثيوبيون بشيء من العصبية والقلق ؟ صحيح أن سكان الريف والمدن قد اعتادوا على عمليات انتقامية من قبل الجيش الإثيوبي عقب كل معركة يلتحم فيها الثوار مع الجيش الإثيوبي. ولكن ما الداعي لهذا التحرك اليوم طالما أنه لم تحدث أية مواجهة بين الثوار والجيش الإثيوبي خلال الأيام القليلة الماضية ؟ استبدت الحيرة بالسكان لعجزهم عن إيجاد أي تفسير لما يجري حولهم... حبس الناس أنفاسهم... في تلك الدقائق المتأخرة استشعر السكان، ومن وحي الإحساس الغريزي، أن المدينة على وشك أن تشهد حدثاً غير مسبقاً... أفاق الناس في وقت متأخر إلى الحقيقة الرهيبة الماثلة أمامهم... لم يوجد خيار آخر سوى مواجهة القدر المحتوم... فتوقفت عقارب الساعة في المدينة.

❖ وأطلقت الكارثة برأسها....

عصر يوم الأحد 1975/3/9م

إقتربت عقارب الساعة من الرابعة والنصف عصراً (4،30) تقريباً... وبعد مرور نحو عشرون (20) دقيقة من إقلاع المروحية حانت لحظة الحقيقة فسُمعت طلقات نارية متفرقة في اتجاهات مختلفة من المدينة، ثم ازدادت كثافة تدريجياً في مواقع متباعدة. تلى ذلك دوي انفجارات للأسلحة شبه الثقيلة... تعالت الصيحات هنا وهناك... وبدأت الأدخنة

تظهر أولاً في الأحياء الشمالية القريبة من موقع حادثة الاغتيال وتحديداً حول الشارع الرئيسي الذي يشق حي (حِلّة دوم) إلى نصفين... إمتزجت أصوات وهممة الجنود الإثيوبيون الهائجين مع صرخات الضحايا المستغيثين... مع أصوات الرصاص والإنفجارات... مع وهج النيران وفرقة أصوات اللهب... مع أعمدة الدخان... مع هُبوب الريح... فاختلط الحابل بالنابل، واختلطت الحقيقة بالوهم. طالت عملية الإبادة جميع أنحاء المدينة، من أقصاها إلى أقصاها. كان الاعتقاد السائد في أوساط السكّان عند بداية إطلاق الرصاصات الأولى بأن مجموعة فدائية من الثوّار قد اخترقت دفاعات القوات الإثيوبية لتنفيذ عملية معينة داخل المدينة فاشتبكت مع الجيش الإثيوبي. إلا أن الحقيقة كانت غير ذلك تماماً. تصاعدت كثافة نيران الأسلحة وعمّت المدينة من كل الاتجاهات، واستُخدمت معظم أنواع الأسلحة المحمولة والمنقولة على العربات باستثناء الدبابات والصواريخ والطائرات. تعالت نداءات الاستغاثة والآهات ونحيب الأمهات. لم تستطع سيارات الإسعاف أن تقوم بدورها إذ أن أي شيء يتحرك كان هدفاً "مشروعاً" وقتذاك.

في تلك الأمسية لم يتلق المستشفى الكائن في الربوة المرتفعة شمال شرق المدينة مصاباً واحداً للعلاج أو لضمد الجراح لأن الناقل والمنقول كانوا في المصير سواء. حتى الدواب لم تسلم من التقتيل سواء عن قصد أو عرضاً. استمرّت العملية ولم تهدأ الإبادة رغم حلول الظلام. مع غروب الشمس تضاءلت الآمال في البقاء على قيد الحياة وتبددت الأحلام لأن ألسنة النيران وسُحِب الأذخنة أصبحت أكثر توهجاً فدبّ اليأس في نفوس السكّان. خلال ساعة المغيب، كان لون الشفق متناسقاً مع لون الحرائق المستعرة في أرجاء المدينة في لوحة مهيبه بريشة القدر. تأججت النيران على نحوٍ أعنف فكانت أغردات أشبه ما تكون بشجرة الميلاد (CHRISTMASS TREE). كان يمكن للنار أن تأتي على مساحات أكبر لو كانت هناك رياح عاتية أو تبدّل مسارها إلا أنها كانت معتدلة وخفيفة السرعة.

بالقاء نظرة إلى الأفق على مشارف المدينة تجد أن حزاماً قوسي من الدخان والنيران قد طوّق المدينة وانعكست ألوانه في الفضاء بألوان قوس قزح. إن يوم "الأحد الأسود" المتعارف عليه مجازاً بيوم "المجزرة" يمكن تسميته أيضاً يوم "المحرقة". تتحسر النيران في اتجاه معين بالمدينة ثم ما تلبث لتستعر في اتجاه آخر وتتصاعد أعمدت الدخان

لتعانق السُحب. ومما زاد في عدد الضحايا كان البعض يخرج من مخبئه في الموقع الذي يُحتجز فيه ليتجه نحو منزله للاطمئنان على أفراد أسرته بموقع آخر معتقداً بأنه لن يصيبه أي مكروه طالما أنه مواطن مسالم ولا يحمل السلاح ولم تُسجل في صحائفه أية سوابق مناوئة للسلطات الإثيوبية. البعض الآخر كان يحاول عبثاً إسعاف المصابين فيُصرع المصاب والمُسعف معاً. كانت المذبحة بالنسبة للجيش النظامي وَجبة سريعة وخفيفة استطاع أن يستعرض خلالها قوّته ومهاراته العسكرية دون أن يتعرّض لأية خسائر في الأرواح أو العتاد. وبالنسبة لقدامى الضباط الإثيوبيون ممن سبق أن أدوا خدمة في إقليم بركة، كانت الحادثة كرنفلاً احتفالياً سَمته التشقيّ والشماتة حيث امتدّت بهم الأجال ليشهدوا سحق فئة وطنية لطالما أرقّت مضاجعهم. أما الجنود الإثيوبيون المستجدين، فقد وجدوا في العملية نُزهة تدريبية في استخدام مختلف أنواع الأسلحة والذخيرة الحية على أجساد كائنات بشرية استعداداً لمواجهة مستقبلية أكثر جديّة.

أفاد بعض شهود العيان أنه خلال الدقائق الأولى من عمر المذبحة كانت المروحية المقلّة للجنرال الإثيوبي الزائر تطوف حول سماء المدينة في مسار دائري بما يشير إلى أن الرجل أراد التأكّد بنفسه من أن تعليماته قد وُضعت موضع التنفيذ فتولى شخصياً الإشراف على العملية من الجو.

❖ مدينة السلام برائحة الدم والنار

مساء الأحد 1975/3/9م :

عند غروب شمس يوم الأحد الأسود أصبح واضحاً أن الأمر لا يتعلق بمجموعة فدائيين تسللوا إلى داخل المدينة كما كان يغلب الظن في الساعات السابقة، بل أن الأسلوب العشوائي المتبع في القتل كان في حد ذاته كافياً ليفسّر حقيقة ما يجري.

لم تكن هذه "المعركة" - إن صحّت تسميتها - كبقية المعارك التي يكون فيها طرفان متكافئان يتبادلان أدوار الهجوم والدفاع... الكر والفر، بل كانت "معركة" من طرف واحد.

في تلك الساعات كان الوقت يمر ببطء وأن كل شخص يتوقع أن يلقي حتفه في أي لحظة من جراء قذيفة تسقط بمنزله أو رصاصة تخترق جسده أو يقتحم الجنود منزله فيُصرع بالخنجر. شوهدت حالات كان الجنود يقتحمون فيها المنازل ليجدوا سكانها أمامهم وجهاً لوجه فيخِرّ بعض السكان مغشياً عليهم دون أن تُطلق عليهم أي أعيرة نارية أو يصابوا بالخناجر. كانت الساعة تمرّ كالدهر. إن انتظار المنيّة المحتومة أقسى وطأةً على النفس من تجربة الموت ذاتها، مثلما هو حال المحكوم عليه بالإعدام الذي ينتظر لحظة التنفيذ. قياساً بزخم النيران كان كل فرد في مخبئه يستبعد أن يبقى أحد على قيد الحياة في خضمّ هذا الإعصار الدموي الذي يراه أمامه... يمكن القول بأن جميع سكان المدينة قد شَمُوا رائحة الموت من خلال رائحة البارود... كان كابوساً بحق. لعل المنطقة الوحيدة التي كان معدّل الوفيات فيها أقل نسبياً مقارنةً بالأحياء الأخرى هي تلك المنطقة الممتدة من سوق المواشي المتاخمة لموقع القيادة العسكرية للجيش الإثيوبي من الجهة الشرقية مروراً بمبنى البلدية الجديد الكائن أسفل التل وصولاً إلى أسوار الكنيسة الكاثوليكية غربي مركز الشرطة والتي تضم محال لبيع المسكرات والخمور محلية الصنع وبائعات الهوى (المعروفة محلياً بـ"حلّة حبش"). يحسن بنا ألا نغوص في الأسباب التي دعت الجنود الإثيوبيون إلى غضّ الطرف عن هذه المنطقة بالذات دون سواها من الأحياء لنلّا ننكأ الجراح.

كان أفراد الجيش الإثيوبي ينفّذون عمليات التقتيل بمنتهى البرود، خصوصاً تلك الفرقة التي كانت متمترسة في أعلى التل الواقع جنوب مبنى مقر المديرية حيث كانوا يطلقون نيران المدفعية الرشاشة من موقع مرتفع يكشف لهم الشوارع والمنازل بمعظم الأحياء... كان الجنود في حالة من حالات الهستيريا.

❖ الليل الطويل :

ليل الأحد 1975/3/9م

كان الوقت يمضي بتثاقل. الكل يدعو أن يرى نهايةً لهذا الليل الطويل. الكل يتمنى أن يرى بصيصاً من النور في نهاية هذا النفق المظلم. الكل يتساءل: وماذا بعد أن تشرق

الشمس صباحاً، هل سيبقى الحال على ما هو عليه، وإلى متى؟ يُقال "اشتد أزمة تنفرج"، فلماذا لا تنفرج هذه الأزمة ، أم أنها لابد أن تشتد ضراوةً قبل أن تنفرج ؟ عندما تهدأ طلقات الرصاص تزداد الحرائق اشتعالاً. وعندما تنحسر ألسنة النيران ترتفع صيحات السكّان. طبقات سُحِب الدخان زادت الليل سواداً فأصبح ظلمات فوق ظلمات. لا خير في ليل لا ترى فيه النجوم ولا صباح لا تهناً فيه بالنسيم. الكل لا يملك أي وسيلة للدفاع عن النفس سوى الابتهاال والتضرّع. صدور عارية في مواجهة أسلحة نارية. أجساد بريئة متشبثة بالحياة أمام جنود متعطشون لفتك... لِمَنْ الشكوى إذا كان الخصم والقاضي وجهان لعملة واحدة.

❖ كيف تواجه الموت بكبرياء

استشهاد رجل الدين الشيخ/ محمد عثمان ابن الشيخ الأمين ابن الشيخ مصطفى

من بين مئات الشهداء، فُجِع سَكّان المدينة بوفاة الشيخ / محمد ابن الشيخ الأمين ابن الشيخ مصطفى ود حسن. المعلوم أن هذا الشيخ الوقور هو حفيد الشيخ مصطفى ود حسن وكان مقيماً بمدينة أغردات في سكنٍ غير بعيد من مقر القيادة العسكرية الإثيوبية في الجزء الغربي من المدينة. كان متوسط القامة، بهي الطلعة، أسمر اللون، ضخم البنية ومترهّل الجسم، ذا وجه دائري وشخصية ملكيّة، خفيف اللحية وكثيف الشارب، وعينان واسعتان مُعَبَّرتان، لا يوجد على خديّه آثار "الشلوخ" التي يمتاز بها سَكّان منطقة بركة، ويبلغ الخمسون ونيف من العمر تقريباً. ومن صفاته فأنه رجل ودود ومسالم ولا يختلط بعامة الناس. يعجّ منزله بالزوار خاصةً من سَكّان الريف ويرفض تلقّي الهدايا ولا يدّعي قدرات خارقة ولا يسير في الأسواق بل لا يغادر منزله عادةً إلا لأداء الصلوات بالمسجد الكبير ويزوره الناس طالبين دعواته لكونه من أسرة الشيخ / مصطفى ود حسن الشهيرة.

يروى احد الناجين الذين حضروا لحظات وفاته في تلك الأمسية أن الجنود الإثيوبيون اقتحموا منزل الشيخ / محمد ابن الشيخ الأمين وكان جالساً بفناء منزله في ظل ما بعد الظهيرة وحوله بعض الزائرين، وآخرون دخلوا للتو إلى منزله طالبين النجاة من النيران أو الوفاة في معيته تيمناً به وبمآثره.

إقتلع الجنود الإثيوبيون باب منزله الخارجي المطل على الجهة الشمالية، وعندما شاهدوا النساء والأطفال والرجال حوله أثار هذا التجمّع شهيتهم فبحثوا عن ثقب الكبريت أو أي أداة إشعال ليضرموا النار في الموقع بعد أن يُجهّزوا على الحاضرين كما كان متبعاً في كثير من المنازل يومئذٍ. طلب الشيخ محمد عثمان من جلسائه أن يتوزعوا في الغرف الأربعة التي يتكوّن منها الدار بدلاً من التجمهر في موقع واحد. أمسك الجنود بأحد الأشخاص الجالسين واقتادوه إلى فناء المنزل بقصد التخلّص منه على ما يبدو. وبعد أن ساروا به لمسافة قصيرة داخل محيط المنزل إنتقت هذا الرجل الضحية إلى الشيخ ورمقه بنظرة توّسل من فوق كتف الجندي الإثيوبي دون أن يتفوّه بكلمة وكأنه يستغيث به ويصرخ صامتاً أو يفكر بصوت عالٍ... أنقذني أيها الشيخ ... لا تدعني لهؤلاء الذئاب... كانت تلك النظرة أكثر بلاغةً من أي رسالة إلكترونية. لم يتمالك الشيخ نفسه وكأنه قرأ الرسالة في عيون ذلك الرجل البائس فتأهب للقيام من مجلسه حاملاً جسمه الثقيل بغرض التدخل في محاولة يائسة لإطلاق سراح جليسه.

إن هذا التدخل الجريء من قبل الشيخ لانتقال الضحية من فك التماسح يعتبر نموذجاً فريداً في الإقدام والشجاعة. لا بد أنه كان يعلم في قرارة نفسه أن محاولته لإنقاذ الرجل الضحية من أيدي السفاحين محكوم عليها بالفشل، بل أن إقدامه على مجادلة جنود يحملون أسلحة ملطّخة بدماء الأبرياء تتطوي على مجازفة بحياته هو شخصياً. كان يسمع ويرى في تلك الساعة ما يدور حول منزله من مذابح لم تجف دماؤها بعد ، مما يؤكد له أن تلك اللحظات غير مناسبة للتفاهم مع جنود هائجين تقطر الدماء من خناجر بنادقهم. إذاً، ماذا يفعل ؟ أليق به أن يجبن ويحافظ على حياته الشخصية ؟ أيكفي أن يتعلل بصعوبة الموقف ويظل قابلاً في مجلسه ؟ كلا... لم يكن من هذا الصنف. لم يكن الجبن أو التخاذل من شيم هؤلاء الناس، فقد نشأ في بيئة تراعي الشهامة وإغاثة الملهوف مهما كانت الظروف.

نهض من مجلسه متحاملاً على نفسه مدركاً دنوّ أجله وسار بخطوات ثابتة محاولاً أن يقف بين الجنود وبين الرجل الضحية وهو يخاطب الجنود بلغة لا يفهمونها. حدّره الجنود بلغة لا يفهمها من أن أي خطوة أخرى إلى الأمام نحوهم ستقوده إلى حتفه. لم يبالي

الشيخ محمد إبن الشيخ الأمين بالتحذير وحاول الدفاع عن جليسه بوسيلة الإقناع والتفاهم. أثر الشيخ مبدأ استقبال الموت خير من استدباره وأن الجود بالنفس أقصى غاية الجود. أعتبر الجنود هذا التدخّل تحدياً لهم ومعوفاً لمهمّتهم فاتخذوا موقفاً أكثر رعونةً. مع مرور اللحظات والدقائق في الأخذ والرد حول مصير الرجل الضحية أيقن الشيخ بأن سويغات عمره أصبحت معدودة، غير أنه لم يتوان عن حماية جليسه بطريقته الخاصة. نفد صبر الجنود وأحسوا بأنهم قد احتملوا هذا الرجل العنيد أكثر مما يجب. فما كان من أحد الجنود الإثيوبيون إلا أن ضرب الشيخ بعنف بماسورة فوهة البندقية المعدنية في صدره دون أن يطلق الرصاص... سقط الشيخ على وجهه مغشياً عليه. وبعد لحظات حاول النهوض مرة أخرى وهو يترنّج واستند على ساعديه وركبتيه ليرفع جسده غير أنه لم يفلح. وبينما كان جسمه المتأرجح على وضعية بين جالس وقائم جاء جندي آخر من الخلف وضربه بقوة على أسفل رقبتة بمؤخرة البندقية ... فكانت النهاية.

أستشهد الشيخ ليس مدافعاً عن ذاته بل مدافعاً عن أحد جلسائه الذي لا تربطه به أي صلة بل قد لا يعرفه معرفة شخصية، مجسّداً بذلك أروع معاني الشهامة وأسمى درجات الإيثار.

أصبح هذا المشهد المأساوي ركناً هاماً من أركان مذبحة يوم الأحد الأسود وأن أي رواية لحادثة أغردات تغفل عن سرد وفاة الشيخ / محمد عثمان تعتبر رواية منقوصة وذلك لمكانة هذا الرجل في نفوس سكان المدينة وأسلوبه المتقرّد في مواجهة الموقف والتعامل معه.

مشهد محمد الدرة الفلسطيني في أغردات

❖ عائلة الشيخ/ عثمان إدريس أقش

من بين المناظر الكثيرة المؤثرة التي لا تزال عالقة بذهني، شاهدتُ شخصياً امرأة ملقاة وسط الطريق العام ترتدي ثوباً ملوّناً ممسكة أحد طفليها بيدها اليمنى والآخر بيدها اليسرى وتسيل دمائهم تحت أجسادهم. المرأة هي زوجة المواطن / عثمان إدريس أقش، مع

طفليها. كان هذان الطفلان يلهوان في الطريق العام المجاور لمنزلهما الواقع بحي "حلة سودان" شمال بناية رجل الأعمال الإيطالي "دنداي" في موقع ليس ببعيد عن سور السجن العام. فعندما سمعت والدتهما إطلاق النيران خرجت من منزلها مذعورة وهبت مسرعة بحثاً عن صغارها وأمسكت بيد كل منهما واتجهت نحو المنزل. في تلك اللحظات وقبل أن تدخل إلى منزلها صادف وأن مرّ أحد الجنود الإثيوبيون بذات الطريق في مسافة تبعد عنها بنحو ستون متراً تقريباً. كانت المرأة وطفليها في بداية الطريق العام من الناحية الجنوبية، وكان الجندي الإثيوبي في الجهة الشمالية للطريق نفسه المؤدي إلى حي "حلة دوم".

عندما وقع بصره على المرأة وطفليها توقّف الجندي الإثيوبي عن السير وارتكز وصوب سلاحه نحو "الهدف". لم يسارع بإطلاق النار... مرّت لحظات وهو مرتكز وكأنه يتخذ قراره بعناية... يتساءل... يُحدّث نفسه... هل يجوز لي أن أقضي على أفراد هذه الأسرة... ولكن ما هي الجريمة التي تستوجب القصاص منهم... وهل يليق هذا الإجراء بمكانة الجندي الإثيوبي... مع مرور اللحظات كانت كفة الميزان تميل نحو القضاء عليهم... هتفت المرأة ببعض الكلمات بصوت عالٍ ومتلعثم بما يفيد المناشدة بعدم إطلاق النار وهي لا تزال ممسكة بطفليها. لم تتوقع هذه المرأة أن يأتيتها الرد على مناشدتها عبر فوهة البندقية. أفاد بعض السكّان الذين كانوا على موقع قريب، أنه عندما أحسّت بأن لا جدوى من استغاثتها وأيقنت أن الجندي الإثيوبي ماضٍ في إصراره للقضاء عليهم طلبت منه أن يترك الأطفال في حال سبيلهم ويقضي عليها بدلاً منهم. ففي حين أنها كانت تحاول استدراج عطف الجندي بالعدول عن الضغط على الزناد كانت في الوقت نفسه تزداد التصاقاً بطفليها وكأنها تريد أن تحمي صغارها بجسدها. لم تكن استغاثة المرأة ولا عويلها كافياً ليثني ذلك الجندي عن تصميمه بالقضاء عليهم ولم يتزحزح عن موقع ارتكازه فأطلق عليهم زخّات من سلاحه الآلي ليسقطوا جميعاً على وجوههم.

غادر الجندي الموقع تاركاً خلفه ثلاثة جثث بريئة وتابع سيره بثبات بحثاً عن فريسة أخرى وسط الأحياء السكنية.

يمكن تشبيه هذا المشهد بحادثة مقتل الصبي الفلسطيني محمد الدرة الذي اغتاله الإسرائيليون في 30 سبتمبر 2000م في منطقة غزة بفلسطين.

... وطفل مجهول يبحث عن رائحة أمه

حدّثني بعض الناجين من المذبحة أن سگان الأحياء الشمالية وجدوا في صباح اليوم التالي للمذبحة طفلاً مجهول الهوية وسط الأشجار والأعشاب في أطراف المدينة. يبلغ الطفل الثالثة أو الرابعة من العمر تقريباً، وكان يسير وحيداً حافي القدمين وقد أعياه السهر والتعب وهو يبحث عن أمه طوال الليل. كان الطفل قد أتى بمعية أمه من احد القرى القريبة من أغردات قبل وقوع الحادثة بوقت قصير لقضاء بعض الحاجيات ثم العودة إلى قريتهم. إلا أنهم حوصروا بنيران الأسلحة في أطراف المدينة. ومع تصاعد وتيرة إطلاق النار وانتشار الحرائق بالمنطقة أثناء المغيب تفرقا مرغمين وسط الأشجار. ظل الطفل على هذه الحال حتى شروق الشمس. عندما أمسك به سكان الحي صباح يوم الاثنين وسألوه عن أهله اخبرهم بأنه يبحث عن أمه منذ البارحة ولم يجدها. وبسؤاله عن أوصافها عزّ عليه تزويدهم بأية إفادة لصغر سنه. تقدّمت إليه احد النسوة لمواساته فحضنته. بادلها العناق ولفّ ذراعيه حول عنق المرأة وهمس لها بصوت مبجوح ومضطرب يختلط بالأنين الدامع "... إن رائحتك شبيهة برائحة أمي..." ، ضمّت المرأة الطفل المجهول بقوة إلى حضنها.

قبل الانتقال إلى المقبرة للبدء في عملية الدفن عرض سكان الحي على الطفل بعض جثث الشهداء وطلبوا منه التعرف على والدته من بينهن. طاف الطفل المجهول بخطوات بطيئة وحائرة حول ركام الجثث لعدة دقائق. راح يدقق النظر بتمعّن في وجوه الأموات تارةً وفي وجوه الأحياء من حوله تارةً أخرى. وفجأةً انتفض كالعصفور الذي بلّله الماء ورمى بنفسه على صدر احد الشهداء وتعلّق بعنقها وراح يقبل وجنتيها منتشياً وهو يتنهد ويعاتبها على غيابها. ظل متعلّقاً بها وكأنه يريد أن يبعث فيها الروح لتنهض وتعود معه إلى قريتهم... لقد وجدوها... إنها أمه. عندما حان الوقت للتوجّه إلى المقبرة كان المشهد بالغ التأثير. تشبّث الطفل المجهول بجثة أمه ممسكاً بتلابيب ثوبها ومعتزلاً

بحزم على فراقها هذه المرة ومتوسلاً بالألا يُبعدوها عنه. قام سگان الحي بتجهيز الجثة وحملوا النعش على الأكتاف. استشعر الطفل المجهول أن هذا الموكب الذي يتأهب أمامه للمغادرة قد يعني فراقاً أبدياً لأمه فاحتدّ عناده وأجهش في البكاء بحرقة وهو يتلوّى على الأرض فأصاب الجموع التي حوله بنوبات من البكاء والهستيريا... رجالاً ونساءً. سار موكب الجنائز في طريقه باتجاه الحي الغربي نحو المقبرة الرئيسية لأداء مهمة الدفن والطفل المجهول يراقب في ذهول دون أن يستوعب ما يدور حوله.

رعايا الجاليات الأجنبية ...

استشهاد أفراد أسرة سليمان غازي (اليمنية)

في ذلك المساء الذي شهد إبادة جماعية عشوائية، طالت عملية التقتيل بعض الرعايا من الجاليات الأجنبية المقيمة بالمدينة. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أسرة سليمان غازي اليمنية التي كانت تسكن في أحد أحياء المدينة المعروف محلياً باسم "حلّة سودان" بوسط المدينة غربي مبنى السجن العام ومرمى النفايات. كان أفراد هذه الأسرة مثلهم مثل سائر اليمنيين المقيمين بالمدينة يعملون في التجارة بل إن المجال التجاري كاد أن يكون حكراً عليهم دون المواطنين. وكان لهذه الأسرة فتية يتلقون التعليم الأكاديمي نهائياً ويمارسون العمل التجاري في أوقات الفراغ.

قبل اشتعال فتيل المذبحة كان أفراد هذه الأسرة مجتمعين بداخل منزلهم. ومع غروب الشمس وفي خضمّ إطلاق النيران داهم الجنود الإثيوبيون المنزل فوجدوا بداخله امرأة وأبنائها يمتازون عن غيرهم من السگان بالبشرة البيضاء والملامح العربية التي لا يمكن أن تخطئها العين، فقالوا لهم "...بيدوا أنكم سوريون...". جاء هذا الإتهام الجزافي على خلفية أن الإعلام الإثيوبي آنذاك كان يتهم الجمهورية السورية بمساعدة جبهة التحرير الإرترية وتزويدها بالعتاد الحربي. حاول الأبناء نفي هذه التهمة عنهم والتبرؤ عن أي صلة لهم بسوريا بل أن احدهم تحدث مع الجنود الإثيوبيون باللغة "الأمهرنية" الإثيوبية كوسيلة لإقناع الجنود بهويته الإثيوبية والولاء لها. لم يكثرث الجنود بتلك الحجج وطلبوا من الفتیان الخروج معهم إلى خارج المنزل. أحسّت والدتهم بالخطر الداهم وأن الجنود يضمرون شراً لفلذات كبدها، كيف لا وأن إحساس الأمومة غالباً ما يكون صادقاً.

اهتدت الأم إلى وسيلة ظنّت أنها ستُنقذ حياة أبنائها فبدأت بالتوسّل ثم الحوار والمساومة مع الجنود ثم عرضت عليهم كمية مقدّرة من الذهب والمجوهرات الخاصة بالأسرة إضافةً إلى مبالغ نقدية مقابل إطلاق سراح أبنائها. ولو كانت تملك أكثر من ذلك لما ترددت في افتداء أبنائها. كانت مقايضة مبررة في لحظات حرجة. وافق الجنود الإثيوبيون فوراً على هذا العرض المغربي وتسلموا الذهب والمجوهرات والمبالغ النقدية غير أنهم إمتنعوا عن إطلاق سراح الفتیان واقتادوهم إلى خارج المنزل مهددين والدتهم بأن لا تغادر منزلها وإلا....

لا بد أن الدنيا قد أظلمت في وجه تلك الأم خلال تلك اللحظات وهي تشاهد الجنود يقتادون أبنائها إلى مصير لا يختلف عليه اثنان في ذلك المساء. لا شك أنها قد شعرت وكأن جزءاً من جسدها قد أُقْتُلِعَ وهي ترى الجنود ينتزعون أبنائها من بين يديها... وإلى أين؟ ... إلى مصير محتوم... فماذا هي صانعة بعد أن عرضت على الجنود كل ما تملك من حطام الدنيا... مجوهرات وأموال... لا تملك إلا أن تنتظر إليهما نظرة الوداع الأخيرة ليبادلوها النظرات وهما في طريقهما إلى حيث مثاوما الأخر.

لم يختلف مصير هؤلاء الشبان عن مصير الكثيرين من أمثالهما حيث أُطلق عليهما الرصاص في مكان غير بعيد من منزلهم.

الأخوان الشهيدان من هذه الأسرة هما :

1- علي غازي ، طالب بالمرحلة الثانوية

2- سليمان غازي ، طالب بالمرحلة الثانوية أيضاً

يروى بعض السكّان الذين كانوا في موقع قريب من مكان الاغتيال أن أحد هؤلاء الفتیان كان يئنّ طوال الليل ويتكلم بصوت مسموع إذ أن الطلق الناري لم يصبه في مقتل بل ترك جرحاً غائراً في جسده فتوفي من جراء النزف المستمر.

❖ استشهاد الشيخ / شريف حامد إدريس شريف ونجليه هاشم وحسن

كان الشيخ /شريف حامد إدريس شريف أحد أعيان مدينة أغردات المشهود لهم بالاستقامة وأحد رموزها الروحانيين. فكما يشير إليه الاسم، تنتمي هذه الأسرة إلى قبيلة الأشراف العامرية المقيمة بمنطقة بركة والتي يُعتقد أن جذورها تعود إلى الأشراف بالأراضي

المقدسة بالحجاز مما يُكسبهم مكانةً خاصةً في المجتمع المحلي ويتوافد إليهم السكّان طلباً لدعواتهم الخيرة تيمناً بمكانتهم الروحانية وتقديراً لنسبهم المُعتدّ بآل البيت. واستناداً إلى هذه الخلفية التاريخية يتمتع أفراد قبيلة الأشراف بقدرٍ من الاحترام على الصعيد المحلي وتحرص الدوائر الرسمية بأن توليهم عناية خاصة وتوجيه الدعوة إليهم للمشاركة في الاجتماعات والندوات العامة إدراكاً منها بمدى تأثيرهم على شريحة عريضة من المجتمع المدني المحلي.

تلقّى الشيخ / شريف حامد إدريس شريف الدعوة لحضور الاجتماع بمقر رئاسة الإدارة في ذلك اليوم باعتباره أحد رموز المدينة بجانب كونه تاجراً بارزاً في مجال المواد التموينية والزراعة. وقد شارك في مداولات الجلسة الصباحية المنعقدة برئاسة مدير الإقليم كما أشرنا سابقاً. لم تتوفر لدينا التفاصيل عن كيفية تنفيذ عملية الاغتيال إلا أنه في ذلك المساء (الأحد 9-3-1975م) كان الشيخ / شريف حامد إدريس شريف في منزله عندما داهم الجنود الإثيوبيون الدار فوجدوه مع اثنين من أبنائه وهم : هاشم شريف حامد الذي كان طالباً في المرحلة الجامعية وحسن شريف حامد الذي كان طالباً في المرحلة الثانوية فأطلقوا عليهم النار من مسافة قريبة فتوفوا جميعاً في الحال.

❖ حرق الأدميين بالنار

الشيخ / محمد إدريس حامد

لم تقتصر مذبحة أغردات على قتل المدنيين بالمدافع الرشاشة أو القنابل أو الخناجر بل استخدم الجنود الإثيوبيون وسيلة أخرى أكثر بشاعةً ... النار !!

فمن بين الشهداء الذين لقوا حتفهم حرقاً نذكر الشيخ / محمد إدريس حامد وهو رجل طاعن في السن وكفيف. كان هذا الرجل البالغ من العمر نحو 67 عاماً يخدم في شرطة المدينة ثم تقاعد لظروفه الصحية المتعلقة بضعف بصره وبلوغه السن القانونية بحسب نظام التقاعد. وكان يقيم في الحي الغربي للمدينة والمعروف محلياً بحي "جِلّة تكرير" في موقع ليس ببعيد عن خط السكة حديد.

قُبيل غروب الشمس من مساء يوم الأحد الأسود تحرّكت مجموعة من الجنود الإثيوبيين باتجاه الأحياء الغربية للمدينة. وبعد أن عبروا خط السكة حديد غرباً توقّفوا عند باب أحد

البيوت الشعبية وشاهدوا رجلاً بداخله. طلبوا منه الخروج من الكوخ إلى الشارع العام لكنه اعتذر قائلاً بأنه بحاجة إلى من يأخذه بيده لضعف بصره وقلة حيلته. بعد وقت قصير من الأخذ والرد في الحديث طلبوا منه البقاء بداخل منزله وأوصدوا الباب من الخارج بإحكام ثم أضرمو النار في المنزل. شبت النار في البيت وأتت على السور المحيط به وعمت البيوت الأخرى القريبة منه. ظل الرجل يصرخ ويستنجد طالباً المساعدة لإخراجه. كلما ارتفعت درجة حرارة النار داخل بيته علا صوته وعويله. لم يجد صراخه تجاوباً فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار. خفت صوته تدريجياً حتى انقطع تماماً. لم يغادر الجنود الإثيوبيون الموقع إلا بعد أن تيقنوا بأن البيت ومن فيه قد تحولوا إلى رماد... ولكن هل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها !!!

❖ استشهاد الشاب / مختار محمد إدريس جمع

كان الشاب / مختار محمد إدريس جمع يسير مع شقيقه الأصغر (خالد محمد إدريس) من الشارع العام الذي يمر بمحاذاة المعهد الديني الواقع غربي المسجد الكبير باتجاه وسط المدينة. وعندما وصلا إلى السوق الشعبي المعروف محلياً بسوق الـ"إسكودرية" شاهدوا في الشارع المواجه لهما مجموعة من الجنود الإثيوبيون وهم يطلقون الرصاص بصورة عشوائية. عندئذ طلب مختار من أخيه خالد بأن يختبئ داخل أحد الأكشاك التجارية، ففعل. لم تمضي سوى لحظات حتى لمح الجنود الشاب مختار في مسافة غير بعيدة منهم. وبصورة تلقائية صوبوا سلاحهم نحوه فأردوه قتيلاً. أما شقيقه الأصغر فظل في مخبئه حتى صبيحة اليوم التالي وكتب الله له عمراً جديداً.

❖ قبر منزلي :

هل هناك أغرب من أن يدفن الفتى أمه في عقر داره !!

من بين الفظائع في نازلة يوم الأحد الأسود، حاصرت نيران الجيش الإثيوبي أحد سكان المدينة داخل منزله مع والدته، (نحتفظ بالإسم). فبينما هما مختبئان بأحد زوايا المنزل أصيبت والدته بطلق ناري فسقطت. وعندما اتجه الجنود نحو المنزل وتصادت وتيرة المذبحة قرر الإبن الخروج منه هرباً من الموت المحتوم... لكن لم تطاوعه نفسه بأن

يترك والدته التي كانت ممددة على أرضية المنزل مضرّجة بالدماء تصارع الموت. جلس بجوارها برهةً يتحسس جسدها ونبضات قلبها... إنها تُحتضر ... بحث في أرجاء المنزل عن أي شيء يساعده في إسعافها... لم يجد شيئاً... أصبحت المرأة في اللحظات التي تسبق النزع الأخير ... أخذ يقلّب جسدها يميناً ويساراً وهو حائر فيما يجب عليه فعله من أجل إنقاذ حياتها... لا يمكنه نقلها إلى المستشفى ولا يستطيع استدعاء سيارة الإسعاف الوحيدة بالمدينة بل ولا يمكنه الاستغاثة بجيرانه لكونهم يواجهون ظروف مماثلة. إذًا، ماذا يفعل؟ وكيف يتصرّف؟ توقّف عقله عن التفكير. أخذ يتحرّك داخل محيط المنزل بخطوات سريعة مرتبكة ذهاباً وإياباً. كلّما ارتفعت حشّرجة الاحتضار زادت سرعة خطواته حولها. بينما هو في هذه الحيرة لفظت والدته أنفاسها الأخيرة بهدوء.

أصبح الموقف أكثر تعقيداً... إزدادت حيرته... هل من سبيل لموارثها الثرى بصورة تليق بمكانة الأم؟ كيف يمكنه أن يبرّ بها وهي جثة هامة ممددة تحت أقدامه؟ أياها على كتفيه إلى خارج المنزل أم يتركها ويهرب لينجو بنفسه؟ في لحظة عابرة قرر تطبيق مبدأ "الحي أفضل من الميت". راودته نفسه بأن يتركها ويغادر المنزل طالما أنه عاجز عن فعل أي شيء لها. لكنه استدرك أن الحيوانات قد تنهش جثتها فيلاحقه العار ما بقي حياً. كان يريد أن يفعل لها شيئاً بعد مماتها لئلا يعذّبه ضميره لاحقاً. في تلك الساعة لم يكن لديه الكثير من الخيارات أو البدائل، بل لم يكن لديه وقتاً كافياً ليقوم بما يمليه عليه ضميره. اهتدى إلى وسيلة تريحه من عذاب الضمير... أن يدفن والدته داخل المنزل. استعان بأدوات المطبخ المعدنية والقطع الخشبية ليحفر قبرها داخل المنزل. تمّت عملية الدفن على عجل.

عبثية الأسلوب :

هذه النماذج في واقع الأمر، إنما هي غيض من فيض وقليل من كثير ونسردها فقط لتصوير الأسلوب العبثي الذي إتبعه الجنود الإثيوبيون في التعامل مع المدنيين العزل إلا أن ما خفي أعظم ، وأن وراء كل شهيد من مئات الشهداء قصة تحكي اللحظات الأخيرة

من حياته على أيدي جنود لا يجدي معهم التوسل نفعاً ولا شفقة لهم في غياب أي نمط من أنماط الحماية للسكان من جانب الثوار الإريتريون.

كانت القوات الإثيوبية متمركزة في أربعة (4) مواقع أساسية:

- ❖ مقر القيادة العسكرية العامة المتاخمة لمحطة السكة الحديدية
- ❖ بناية رجل الأعمال الإيطالي "دنداي - DANADAI" بوسط المدينة
- ❖ دار الشيخ محمد عثمان الميرغني القريبة من بناية "دنداي" بوسط المدينة
- ❖ مصنع الدوم القديم المعروف محلياً باسم "شيشيتا" شمال شرق المدينة

هدأت عملية النقتيل عند الساعة الثامنة مساءً وتوقفت تماماً في حوالي الساعة العاشرة مساءً من نفس الليلة (9-3-1975م)، إلا أن حِمَم الدخان ظلت تتصاعد وألسنة اللهب بقيت مشتعلة حتى ساعات الصباح الأولى من اليوم التالي. قبل حلول منتصف الليل عاد الجيش الإثيوبي إلى ثكناته منتشياً بإنجاز المهمة على أكمل وجه. وكما هو موضح في قائمة الشهداء الملحقة في ذيل هذا الكتاب، بلغت محصلة المجزرة حوالي ثلاثمائة وواحد وسبعين (371) قتيلاً من المدنيين العزل بحسب ما هو مسطر في اللوحة المعلقة بالمقبرة الرئيسية في أغردات والتي لا تزال موجودة هناك حتى إعداد هذا الكتاب. أما عدد الجرحى فلم يتجاوز نصف هذا العدد إذ أن إطلاق النار كان من مسافات قريبة دون مقاومة من الطرف المستهدف. لم تتوفر لدينا إحصائية دقيقة تحصر العدد الكلي للقتلى والجرحى وبياناتهم الشخصية ذلك أن سكان المدينة كانوا يدفنون الشهداء في مواقع متفرقة رغم أن الغالبية تم دفنها في المقبرة الرئيسية بالمدينة المعروفة محلياً باسم "أوتيت" والواقعة في الجهة الغربية من المدينة إضافةً إلى عدداً آخر تم دفنه في مقبرة أخرى صغيرة تقع على مقربة من حي "عد غصب" شرقي المدينة وآخرون في مقبرة ثالثة بالحي المعروف بـ"حلة سودان" شمال شرق المدينة.

❖ وأصبح الصبح...

صبيحة الاثنين 1975/3/10م

إذا كان يوم الأحد الأسود هو يوم المذبحة، فإن يوم الاثنين الذي يليه كان يوم الفزع.

مضى الليل بآلامه وأناته والكل ينتظر بزوغ الشمس وكأن في بزوغها ضماناً للحياة. إن مجرد التفكير في غدٍ جديد كان مبعثاً للتفاؤل بحياة جديدة وبعمر جديد. كان شروق الشمس يحمل الكثير من المعاني، في صدارتها أنك قد تجاوزت المحنة وأن أمامك فرصة أخرى للبقاء على قيد الحياة. كان شروق الشمس يرمز إلى الأمل في إمكانية زوال الخطر والخروج من المخابئ إلى النور والنظر إلى الأفق البعيدة وإلى ما حولك ومقابلة الأحياء والتحدث إلى الناس والاطمئنان على الأهل والأحباب. كان طيف الغسق أقصى ما يتمنى الناجون رؤيته. كان ضوء الشمس أملاً وحلماً تَهفوا إليه الأفئدة لأن في شروقها إضافة يوم جديد على عُمرٍ كادت أن تُطوى صحيفته...

عند ساعات الفجر الأولى ساد المدينة جواً من التفاؤل فتنفس الناجون الصعداء وتعزّزت الآمال وأصبح الحلم نصف حقيقة إذ لا أصوات للرصاص ولا انفجارات ولا أزيز لناقلات الجنود باستثناء سُحب الأدخنة السوداء المتصاعدة في السماء وأتات الجرحى الذين عَزَّ من يسعفهم. كانت سويغات تخللتها فُسحة أمل. كان هذا التفاؤل مقروناً بالقلق عن الآخرين... هل جميعهم أحياء أم أصابهم مكروه... الكل لديه الكثير مما يود أن يرويهِ عن الليلة السابقة.

في صبيحة اليوم التالي (الاثنين 1975-3-10م) وعند شروق الشمس بدأ الناس في الخروج بحذر من الأماكن التي أُحتجزوا فيها مساء اليوم السابق... كان كل شيء في المدينة وما حولها يبدوا مختلفاً عن المألوف. اليأس والبؤس كانا يلفّان المدينة إلى درجة تكاد تسمع فيها سيمفونية حزينة في فضاء المدينة. الظواهر التي لم تختلف في ذلك الصباح عن صباحات الأيام الاعتيادية كانت تتمثل فقط في السُنن الكونية والنواميس السرمدية مثل شروق الشمس في موعدها المعتاد... وألوان الطيف في ساعات

الغسق...وتغريد العصافير...والهواء العليل...وضياء الشمس الذي يعم القريب والبعيد
على مدى البصر إيداناً بصباح يوم جديد... ويا له من صباح...

في ذلك الصباح، وعندما عمّ المدينة الضياء، وبدأ الناس في أولى خطوات الخروج من
المخابئ، كان أول ما يفعلونه هو أن يفركوا أعينهم مراراً وكأنهم لا يصدقون ما يشاهدونه
أمامهم من مناظر تُجسّد لقطاتٍ من أكثر أفلام الرعب بشاعةً... وأن يضعوا أيديهم على
صدورهم لكبح نبضات قلوبهم التي تدقّ بعنف... وأن يُمسكوا برؤوسهم لتخفيف وطأة
الدوّار. كانت مناظر الشوارع مروّعة، ورائحة الدخان والبارود تزكم الأنوف. جثث منتشرة
وأجساد ممزقة في كل مكان. في ذلك الصباح لم يُطلق الجيش الإثيوبي رصاصة واحدة
بل لم يعترضوا سبيل من يمر بالقرب من معسكراتهم، ولكن الجزع الذي أصاب السكان
من مشاهد الشوارع لم يكن أقل تأثيراً مما كان عليه الحال في الليلة السابقة. تحوّلت
أغردات إلى مدينة أشباح. أبواب المنازل والمحال التجارية مفتوحة على مصراعيها بعد أن
غادرها ملاكها للنجاة بأرواحهم أو أدركتهم المنيّة. كان السكون يغلف المدينة ولكنه سكون
من النوع المخيف. لم يكن هدوءٌ مريح للأعصاب أو مبعثاً للاطمئنان. الصوت المسموع
في ذلك الصباح كان صوت الريح وطققة فروع الأشجار وأصوات الأبواب والنوافذ
المفتوحة التي ترتطم بالجدران من تأثير الريح... أينما تتجه تجد جثامين وأشلاء...
جماجم محترقة... أجسام مشوّية تتبعث منها روائح غريبة... جثث في سوق الخضار
... جثث داخل المطاعم والأفران... جثث على قارعة الطرقات... جثث في المقاهي
... جرحى في الأزقة... جثث وجرحى داخل المنازل والأكواخ... جثث وجرحى في سوق
العيش... جثث وجرحى داخل أكشاك "الأسكودرية"... وفي مرمى النفائات... وحول
المعهد الديني... وتحت الأشجار... وفي البساتين حول المدينة... وحتى داخل المسجد
الكبير:

ففي داخل المسجد الكبير أُصيب إمام المسجد وخطيبه بجروح بالغة... ذلك الرجل الورع
والزاهد الشيخ / محمد الحسين إدريس عبد الله يرحمه الله. اعتاد هذا الإمام أن يقدم دروساً
فقهية يومية بعد صلاة العصر وحتى آذان المغرب في الجناح الغربي من المسجد الكبير
جالساً على مقعد خشبي وحوله لفيف من المهتمين والدارسين من مختلف الأعمار. في

تلك الأمسية مرّت مجموعة من أفراد الجنود الإثيوبيون بالمقاهي والمحال التجارية المحيطة بالمسجد من الجهة الجنوبية وأصابوا من أصابوا ثم توجهوا نحو المسجد الكبير الذي لا يوجد حوله أي سياج أو سور فدخلوا من المدخل الرئيسي الجنوبي الوحيد. يروي بعض المصلين الناجين ممن حضروا تلك الدقائق المرعبة أن أحد هؤلاء الجنود صوّب سلاحه الناري الآلي باتجاه المصلين الجالسين إلا أن رفاقه الآخرين حالوا دون إطلاقه النار بدعوى أن دور العبادة في الأعراف الدولية " لها حرمتها ولا يصح القتل فيها خشية ردود أفعال من منظمات حقوق الإنسان الدولية "...عجباً... !!

لم يقتنع ذلك الجندي الهائج بتلك المبررات ولم يجد في وجدانه وازعاً يردعه من إطلاق زخات من الرصاصات بل لم يرى فارقاً يُذكر بين هؤلاء الرجال المصلين وبين أولئك الذين أصابهم قبل دقائق معدودة داخل المقاهي وفي الطرقات المتاخمة للمسجد. استطاع هذا الجندي الإفلات من أيدي زملائه الجنود ليفتح نيران سلاحه الآلي نحو المصلين فأصاب البعض منهم ومن بينهم إمام المسجد والواعظ الشيخ/ محمد الحسين إدريس عبد الله كما سبقت الإشارة إليه.



مسجد أغردات الكبير - لم يراعي الإثيوبيون حرمة



بلدية أغردات، إرتريا

❖ مقبرة الأحياء :

في صباح اليوم التالي للمذبحة ورغم حالة الهدوء الحذر والسكون النسبي بالمدينة كانت أغردات أشبهه ما تكون بمقبرة للأحياء . فبعد انتهاء مهمة الدفن بدأ الناس في العودة إلى منازلهم المهذّمة والمحتركة. في الأحوال المعتادة يتوجه الناس من المقبرة إلى سكن ذوي المتوفى لتقديم واجب العزاء ومواساتهم. أما في ذلك اليوم كان سكان المدينة يتبادلون عبارات العزاء في الطرقات... يغالبون الحزن ... يتحاملون على نفسياتهم المنهارة ... نفوسهم المنكسرة ... الكل يحاول أن يبدو متماسكاً ... رابط الجأش... لكن الحدث كان رهيباً ... مروّعاً ... الكل يريد أن يتمسك بأي أمل للبقاء في مسكنه دون خوف أو وجل... لكن الواقع لا يستبعد تكرار ما حدث بالأمس مجدداً ... لا يريدون مغادرة هذه المدينة الخضراء التي نشأوا تحت ظلالها ... حدائقها ... أحيائها القديمة ... وديانها

الخالدة...أشجار الدوم/ النخيل المتراسة على ضفاف نهر بركة العظيم ... هل يجوز لأبناء وأحفاد حامد عواتي الذين تجري مبادئ الثورة في عروقهم أن يغادروا مدينتهم ... هل يليق بسكان هذه المدينة الشامخة التي هي منارة الثورة الإرترية أن يتخلّوا عن روح الصمود والجلد فيهجروها... ألم تستلهم الثورة الإرترية ذاتها روح الصمود ومعنى التحدي من هذه المدينة ... لكن الشواهد تدل على احتمالات وقوع مزيد من الكوارث... وإذا وقعت هذه الكوارث المحتملة فمن ذا الذي سيحميهم وقتئذٍ؟ أهى السلطات الإثيوبية التي تقوم بدور الجلاد والحكم في آنٍ واحد أم هي وحدات الثورة الإرترية التي كانت على بُعد مرمى حجر من المدينة أثناء وقوع المجزرة ولم تحرك ساكن؟

كانت عواطفهم تملّي عليهم مزيد من الصمود والتمسك بتراب أرضهم وعدم مغادرة مدينتهم رغم المِحَن التي لا قِبَلَ لهم بها. في الجانب الآخر كانت عقولهم تحثهم على ألا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة ... أن يغادروا هذه المدينة التعيسة إلى الأبد ... إلى المجهول ... إلى غير رجعة ... أن يتّعضوا مما حدث بالأمس القريب ... كيف سيهْنئون بالعيش تحت ظلال سيوف مسلّطة على رقابهم من كل جانب ... كيف سيواجهون عدواً يقتحم منازلهم ويفتك بهم دون رحمة وهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم؟ كيف سيننون مستقبلاً لأبنائهم في جو مشحون بالمخاطر ... كيف سيوفرون لقمة العيش تحت حصار وقذائف لا تهدأ... في تلك اللحظات التي أعقبت عملية الدفن وأثناء العودة إلى ما تبقى من المنازل كانت هناك صراعات نفسية في دواخل كل فرد. تجاذب بين العواطف وبين المنطق...بين المعقول واللامعقول... بين الخوف والأمل. صوتان يصرخان في أعماق كل فرد: البقاء في هذه المدينة العزيزة أم المغادرة إلى المجهول؟ وإذا تكوّنت القناعة بالمغادرة فالى أين؟ وإذا كان البقاء في المدينة هو الخيار الأنسب فكيف ستمارس حياتك اليومية ورائحة البارود تغطي سماء المدينة ليل نهار؟



أغردات - بركة خلال فصل الخريف

❖ القرار الصعب:

كانت الغلبة لصوت العقل. اختار معظم السكّان إخلاء مدينتهم على مضض. الكثيرون توجهوا نحو القرى المحيطة بالمدينة للبقاء فيها لبعض الوقت مثل قرية "عد عمر" وقرية "عد همى" ومنطقة "سوليب" وقرية "إيتجنري" ومركز "منصورة"... وآخرون قضوا أياماً عديدة في الوديان والسهول والغابات في العراء مبعثرين وسط أشجار الدوم بعد أن تقطعت بهم السبل، هائمين على وجوههم... وآخرون توجهوا نحو منطقة "تكرريت" الخضراء ومنها إلى شرق السودان مباشرة. الكثيرون لم يعودوا ثانية إلى تلك المدينة المنكوبة طيلة العقود الماضية منذ أن غادروها في صباح ذلك اليوم، الاثنين 10-3-1975م وإلى يومنا هذا.